النهضة العربية والعقلانية في فهم وإصلاح الشريعة عند مُحَّد عبده

The Arab renaissance and rationality in understanding and reforming the Sharia of Muhammad Abdu

حليم بن هبري 1 ، أحمد باجي 2

[1] جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)،
halim.benhebri@ummto.dz

[2] جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر) ،
Ahmed.badji@ummto.dz

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2023/02/13
تاريخ القبول:2023/06/15

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

العقلانية كمنهج في إصلاح فهم الشريعة من أجل نهضة حديثة عند محمد عبده

ظهر في العصر الحديث العربي الإسلامي علماء وفلاسفة ومفكرين، سعوا إلى الإصلاح والتجديد في فهم الدين لعله يكون سببا في بلوغ الحداثة ومحاولة ارجاع السلمين إلى المجد الغابر، ومن أبر هؤلاء المفكرين "مُحَّد عبده" المفكر المصري الحديث الذى برز في التيار الإصلاحي الذى يقوده معلمه "جمال الدين الأفغاني" ،للعمل على الدعوة إلى العقلانية التي أصبحت ضرورة حتمية من أجل فهم الشريعة واستنباط عملها ومعرفة وجودها الحقيقي وبهذا يكون مُحَّد عبده قد استدعى العقلانية الرشدية القديمة، والدعوة إلى فهم الشريعة في ضوء العقل، الذى يبنى نهضة كل مجتمع وبلوغ الحداثة والتأثير في الآخر وصناعة التاريخ .

الكلمات المفتاحية: **النهضة؛ الإصلاح؛ الدين؛ الحداثة؛ التأثير في التاريخ؛**

ABSTRACT

In the modern Arab-Islamic era, scholars, philosophers, and thinkers appeared, who sought reform and renewal in the understanding of religion, perhaps it would be a reason for achieving modernity and trying to return the two Muslims to bygone glory. Jamal al-Din al-Afghani, to work on the call to rationality, which has become an inevitable necessity in order to understand the Sharia and deduce its work and know its true existence. the other and the making of history.

Keywords: : Renaissance; Reformation; Debt; modernity; influence on history

1. مقدمة:

لا شك أن أي حضارة إنسانية لديها مقومات خاصة بها، والتي تسعى إلى بعث الروح التنويرية والتطوير في شتى المجالات، فيعد مشروع مُحَمَّد عبده في عصر النهضة العربية الحديثة من أبرز المشاريع التي اشتهرت في هذا العصر، والذي عمل على إيجاد منهج عقلاني لإخراج المسلمين من مأزق التخلف واللحاق بالحداثة، فهو نصوح الأمة العربية في طورها الحديث والتي كانت قد مرت بمراحل عديدة وقبل الحديث عن أهم التطورات المرحلية التي سادت وكانت شائعة في الفكر العربي الإسلامي في بوادر النهضة الأولى فقد شارك فيه أدباء ومفكرون وفقهاء وعلماء الدين وحتى شعراء باعتبارهم إما للانتماء القومي العربي أو للانتماء الإسلامي، فقد اعتبر عصر النهضة بمثابة استفاق العرب من غفلتهم عندما انتبه لها ""شكيب أرسلان" عندما كتب "" لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم" إضافة إلى" رفاعة الطهطاوي" في كتابه" تخليص الإبريز في تلخيص باريس"، كلها مؤلفات تثبت مدى استيعاب العرب والمسلمين لأزمتهم ومشكلتهم الحضارية ولهذا لابد من قيام نهضة وتغيير وتخطي للأزمة ولكن كيف؟ فقد حمل ""مُحَمَّد عبده"" وقبله معلمه الأفغاني مشاكل الأمة وهمها وأزمتها محاولين بذلك جعل منهج فهم متجدد في فهم الشريعة وتحقيق نهضة عربية إسلامية، ومن هذا المنطلق نتساءل:

***ماذا نقصد بالنهضة؟ وماهي عوامل ودوافع قيامها في عصر النهضة العربية الإسلامية؟**

***فيم يتمثل مشروع مُحَمَّد عبده الإصلاحي؟**

***كيف تتجسد العقلانية في مشروع مُحَمَّد عبده من اجل بناء نهضة إسلامية تكون كمنهج نحو الحداثة؟**

وللإجابة عن هذه الإشكالية كان علينا من تتبع المنهج التاريخي والمنهج التحليلي، فالأول قمنا بتسليط الضوء على عصر تتبع مفهوم النهضة وكذلك أسباب ودافع قيامها في العصر الحديث العربي الإسلامي، والثاني الذي حللنا به أفكار مُحَمَّد عبده الإصلاحية التجديدية العقلانية.

وكان الهدف من دراستنا هذه هو إبراز دولا العقلانية الإسلامية في إصلاح فهم الدين حتى يتمكن المسلمون من إحياء مجدهم ولعل بذلك يكون بلوغ الحداثة وتحقيق الحضارة.

2. أزمة الوضع العربي وبوادر النهضة الحديثة:

شهد العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث العديد من الأزمات على مختلف الأصعدة والمجالات، وأساسها الحركات الاستعمارية التي قضا تماما على حلم المجد وأيام الخلافة آلأموية والخلافة العباسية، وإن شؤون الإسلامية قد فطرت على دين الإسلام وهو أكمل الرسلات السماوية، الذي يدعوا إلى العلم والمعرفة والحكمة، فقد عمل مفكرو عصر النهضة تجاوز الأزمة وسنتعرض لمشروع المفكر المصر الحديث مُحَمَّد عبدهن ولكن قبل ذلك لابد من الحديث عن مفهوم النهضة، وبوادر وظروف حدوثها.

فمنذ بدء خلق الإنسانية يقول تعالى:"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(33) سورة البقرة .

فهذه الآيات توحي بأن العلم أساس الحياة، وسر النجاح، فالخلافة في الأرض والسيطرة عليها، وتسخير ما فيها، واستغلال خيراتها، وثمراتها وطيباتها أساس ذلك كله العلم لكه لا غير.

فلا سبيل إلى قيام الإنسان بهذه المهمة، وتحقيق تلك الحكم إلا بالعلم والمعرفة والعمل. (السايح، 1989، صفحة 155)

1.2 مفهوم النهضة: لغة واصطلاحا:

*** مفهوم النهضة لغة:**

قد تداولت مختلف المفاهيم والموسوعات العربية على لسانها منذ القديم، ويمكن تعريف لفظة نهضة بـ:

مشتقة من "نهض للأمر ي يَنْهَضُ نَهْضاً و نُهُضاً قام و (نَاهَضَ عدوه) قاومه و (أَنَهَضَهُ) أقامه و (أَنْهَضىَ) قام و (إِسْتَنْهَضَهُ) أمره بالنهوض. (وجدي، 2000، صفحة 380)

نهضَى: النهوض: البراح من الموضوع، والناهض: الفرح الذي وفر جناحاه ونهض للطيران، ونهض البعير: ما بين المنكب والكتب. (الفراهيدي، /، صفحة 128)

فتجد أن أغلب القواميس العربية حتى يخرج للفظ من الفعل الثلاثي: " نهض" والنهوض: البراح من الموضوع والقيام فيه، نهض ينهض نهضا ونهوضا، وانتهض أي قام، وانتهضته أنا، فانتهض، وانتهض القوم وكنا هضوا، نهوضا للقتال، وأنهضته: حركة للنهوض، واستنهضه لأمرته إذا أمرته للقتال، وأنهضته: حركة للنهوض، و استنهضته لأمر كذا إذا أمرته بالنهوض له، وناهضته أي قاومته، والنهضة سيكون الجهاد: الفتية من الأرض: تبهر فيها الدابة أو الإنسان يصعد فيها من غمض، والجمع نهاض. (منضور، /، صفحة 4560)

وينهض نهضا ونهوضا، وانتهض أي قام: والنهضة الطاقة والقوة. (غليون، 1992)

ومن خلال المعنى اللغوي تتمتع حركية النهوض وفعليته في الأشياء سواء على الصعيد الفكري والنفسي أو المادي، وفي كلا المعنيين هناك انتقال من حال إلى حال وتغيير في الهيئة والموضع وتحرك للحواس عند المرء واستحضار لطاقاته وقواه، نجد أن النهوض يرادف القيام وهو ما أورده القرآن بنفس المعنى في الآية: " قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى"سورة سبإ –الآية 46.

وقد ردد الإمام الخميني هذه الآية في الكثير من خطبه ومحاضراته كشاهد على الأمر الإلاهي بالنهوض لإحياء الدين وإقامة وتحكيم الشريعة الإسلامية الإلهية كما استخدم الإمام مصطلح النهضة والنهوض كثيرا لأن النهضة التي قامت في إيران نموذجا لما حدث في العصر الحديث العربي الإسلامي. (الخميني، 1359هـ، صفحة 05)

*** النهضة من الناحية الاصطلاحية:**

***استخدام مصطلح النهضة في الفكر الأوربي الحديث:**

كانت أولى مبادرات النهضة وخاصة في تاريخ البشرية عموما وتاريخ البلاد الأوربية خصوصا، فقد كانت الارهاصات الأولى لظهور هذا الفكر ما بعد العصور الوسطى الأوربي أي القرون الوسطى، وقد تولى قيادة حركة الفكر في هذا العصر أي بداية القرن 13م، مفكرون وفلاسفة وأهل العلوم الذين يحصرون أنفسهم في نطاق ميدان

التخصص، ويطلق على هؤلاء جميعا اسم عام هو "الفلاسفة"، دون أن يكونوا جميعا فلاسفة بالفعل، وكانوا أحيانا متوالية من المتحمسين بحرية القول، المكافحين في سبيل التقدم، ولكن ينبغي أن نلاحظ إحقاقا للحق، أنهم لم يخوضوا، تلك المعركة الطويلة مدفوعين بالحماس المجرد، لأنهم كانوا في الواقع يسعون لتحقيق غايات اجتماعية وسياسية معينة في أحيان كثيرة فهؤلاء الفلاسفة جميعا نشأوا في مجتمع المدن الذي يسيطر فيه البرجوازيون على الجانب العلمي وحاولوا ومنع الحد للركود الفكري والسياسي والاجتماعي الذي ساد أوربا في العصور الوسطى الباكرة، إن كانت الهجرات العلمية منها الشعوب الجرمانية والصقلية إلى الدول الأوربية فكانت المرحلة الأخيرة في العصر الوسيط (1309/1150م) وفيها بدأ التحول الاجتماعي الاقتصادي، وقامت الملكيات الاوربية الثابتة الأركان ومن ذلك العصر كان الخروج على عصر النهضة. (مؤنس، 1978، صفحة 243)

ويمكن القول أن أول من أطلق مصطلح (عصر النهضة) على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في أوربا ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام 1453م، حيث نزح العلماء إلى إيطاليا ونقلوا معهم تراث اليونان والرومان ويدل مصطلح عصر النهضة غالبا على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الايطالية وبلغت أوج ازدهارها في القرنين (16/15م) وامتدت منها من فرنسا وإسبانيا وألمانيا وانكلترا وسائر أنحاء أوربا وعلى الرغم من أن النهضة الأوربية تحققت بشكل خاص في مضمار الفنون إلا أنها كانت أولا وقبل كل شيء ثورة ثقافية أي رؤيا جديدة للحياة والواقع، انعكست على الفنون والآداب و العلوم والأخلاق، فقد تحقق تقدم سريع على مستوى النظرية وعلى مستوى التطبيق أي على مستوى الفكر ومستوى التقنية. (الكيالي، 1990، الصفحات 117-118)

وكذلك هي الفترة النهضوية في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي في العالم العربي والتي تعرف بصدمة الحداثة، لم يكن الهدف منها إعادة انتاج التجربة الأوربية التي خرجت من العصور الوسطى بحذافيرها أو استعادة إحدى مراحل تاريخها لإعادة انتاجها ومطابقتها بل لقد كان هدف الرّواد الأوائل توطين قيم إنسانية عامّة قادرة على الإسهام على صياغة وعي تاريخي وحضاري عربي. (جباب، 2005-2006، صفحة 19)

ويعرفها مالك بن نبي:

هي البحث عن أسلوب في المعيشة يتفق وشرائط الحياة الجديدة في المجالين الخلقي والاجتماعي، ولسوف نجد أن الحركات التاريخية ستتولد عما قريب من ذلك البحث الغامض الذي امتزج بقلق قديم خلفته في الضمير الإسلامي منذ قرون كتب ابن تيمية وهي الحركات التي تخلع على العالم الإسلامي صبغته الراهنة، هذه الحركات قد صدرت من تيارين: تيار الإصلاح الذي ارتبط بالضمير المسلم وتيار التجديد وهو أقل عمق وأكثر سطحية وهو يمثل مطامح طائفة اجتماعية جديدة تخرجت في المدرسة الغربية. (نبي، 2002، صفحة 48)

وقد أطلق المصطلح (عصر النهضة العربية) على الفترة التي بدأت بحملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر وامتدت إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وما رافقها من اتصال ثقافي بين الشرق والغرب وأقول للدولة الإسلامية المتمثلة في السلطة العثمانية أو تفككها على يد الدول الكبرى ذات الفعالية السياسية آنذاك، وهناك من يرى بأن النهضة لم تبدأ من احتلال نابليون لمصر ودخول خيله للأزهر، كما عمل مزورّي التاريخ والثقافة،

فهذا الاحتلال كان مقدمة للاحتلال الإنجليزي، ودخول المنطقة في دوامة العهد الاستعماري، كان المسلمون على استعداد للترقي والنهوض قبل حملة نابليون ولم يكونوا حاجة للصدمة الحضارية التي حملها معه....

بل قدّم القساوة وسفك الدّماء وما يرتكبه القادة الغزاة المتوحشون ودخلت خلية الأزهر، وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ورموا الكتب والمصاحب على الأرض. (العبدة، 2003، صفحة 14)

فهناك من المفكرين من ينظرون إلى أن عصر النهضة كان له السبق في الظهور في العالم العربي الحديث قبل مدافع نابليون وما حمله من ظواهر وأشياء جديدة كانت غائبة أو بعيدة المنال عن الفرد بل تمثلت حركة نابليون بأنها نوع من الغزو والدمار.

لو نظرنا إلى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، فتجد أن التتار كان لهم اليد في تخلف الدولة العربية أو الخلافة الإسلامية، ولهذا أطلق بعض المؤرخين عصر الانحطاط على الفترة الممتدة بين 656هـ و1213هـ فكانت هذه الفترة الزمنية تتميز بالاستبداد والفتن، وخنق حرية الفكر، وتكبيل الإبداع من حكام يعملون المستحيل من أجل بقائهم في السلطة وكان من نتائج استفحال الفساد واضطراب الحياة الاجتماعية آثار سيئة على الحياة الفكرية والأدبية التي اضمحلت، ولم تبق منها إلا شعاع خافت في مصر وبلاد الشام، وأماكن أخرى قليلة.

فقد اتخذت كذلك بعض الدول الاستعمارية صورا مختلفة في اختلالها وذلك باعتماد حجج واهية كالحماية والدفاع عن المستضعفين إلى ما هنالك من شعارات بوفاء مضللة، مما زاد من ركود الدول العربية على جميع الأصعدة فقد كان غزو التتار أو المغول مصاحبا لما جاء به الاستعمار في العصر الحديث كأنه دورة تاريخية لازمت الفكر العربي وجعلت مقيدا من خراب إلى دمار شامل على جميع الأصعدة فالدور الاستعماري له تأثير أكبر على العوامل الأخرى التي ساهمت في تردي الأوضاع ووقوع العرب في أزمة التخلف.

من أبرز المجالات التي وقع فيها العرب المسلمين في المجال الفكري فتجد أن العالم أو المفكر العربي لا يعرف الرد على خصومه والمناظرة المنطقية في العلم أو الفكر وذلك بسبب العلم الناقص الذي هو أشد خطرا من الحمل البسيط، أما في مجال الأخلاق، فقد انحلت الفضائل التي حث عليها القرآن، اضافة إلى انصياع الأمراء لشهواتهم وظنهم بأن الأمة قد خلقت لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره.

فقد شق بعض العلماء طريقهم لبعض الأمراء حتى انتشر الفساد والبطش بالناصح الأمين، حتى انقادت لهم العامة وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين، هذا والعامة مخدوعون بعظمة العلماء وعلّو مناهجهم وهذا ما أدى إلى جعل "مصالح الأمة تذهب، والإسلام يتقهقر والعدو يعلو ويتميز، وكل هذا إثمه في رقاب هؤلاء العلماء. (ارسلان، **، صفحة 55)

فلما صمد المسلمين العرب بمدافع نابليون على أسوار القاهرة ارتاب العرب الجبن والهلع، زيادة على ذلك اليأس والقنوط من رحمة الله، حتى اعتقد البعض منهم بأن الغرب أو كما يسموّن إلا فرج هم الأعلون في المعمورة ولا سبيل إلى مجابهتهم بوجه من الوجوه، وأن كل مقاومة عبث، وأن كل مناهضة خرق في الرأي.

فلما أدرك العرب وضعهم وضعفهم وسفاهتهم، تغنوا قليلا بأيام تبوء العباس وشيئا من فترة المماليك، فوجدوا أنفسهم تماما مثل فترة العصور الوسطى الأوربية (قبل أن يخترع الإفرنج آلات القتال الحديثة" وقبل المدافع والدبابات والطيارات وقبل أن يصير الإفراج إلى ما صاروا إليه من القوة المبنية على العلم، وهذا القول هو بمنتهى السحق والسفه والحماقة، فإن لكل عصر علم وصناعه ومدينة تشاكله، وقد كانت في القرون الوسطى علوما تشاكلها...، وأمور الخلق كلها نسبية.

3.2. الأسباب السياسية لظهور النهضة العربية الحديثة :

يمكن القول أن ليس الرئيس والذي كان سياسيا هو تدهور أحوال السلطة أو الخلافة العثمانية وانقسامات داخلية، والضعف السيادة الداخلية و الخارجية، مما جعل البعض من الحكام والسلاطين يسارعون إلى بدأ الاصلاحات، ويمكن ملاحظتها عند (عبد المجيد الاول)، (وسليم الثالث)، و (محمود الثاني)، إلا أن هذه الإصلاحات التي أتى بها هؤلاء الحكام لم تكن ناجعة ولم تستطع وفق التدهور الذي سرى واستشرى في كيانها، وكان هذا التدهور شاملا في جميع المجالات، وكان سببا في انهيارها ويمكن تلخيصها في:

1- اتساع الإمبراطورية العثمانية اتساعا هائلا وامتدادها في ثلاث قارات، وما كان يولده هذا الاتساع من صعوبات كبيرة في المحافظة عليها ومجاورتها نتيجة هذا الاتساع لروسيا والدول الأوربية الحديثة.
2- وجود قوميات وأجناس وأديان متعددة فيها، مما كان سببا لثورات لا تنقطع، والتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية بحجة رعاية شؤون هذه القوميات والأديان.
3- الفرق العلمي والتكنولوجي الواضح بين الدول الأوربية التي كانت في تطور نهضتها العلمية وبين الدولة العثمانية التي كانت في دور الركود ثم الانحطاط.

انغماس أكثر السلاطين المتأخرين في حياة اللهو والبذخ، وتفشي سوء الإدارة في أرجاء الامبراطورية. (علي، 2008)

4.2. الاصلاحات السياسية للخلافة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد:

كانت هناك اصلاحات سياسية كثيرة خاصة في العهد السلطان سليم الثالث إلا أن الاصلاحات التي قام بها عبد الحميد الثاني كانت أكثر قربا من النهضة الفكرية للخلافة العثمانية.

كانت هذه الاصلاحات أكثر في الجانب الديني فعمل على انشاء كيان إسلامي موّحد هو الجامعة الإسلامية، فأقام خط سكة حديدية إلى الحجاز وعمل على التقريب بين المسلمين، وأقر بالأخذ عن الغرب ولكن بالتدرج وليس على حساب العقيدة الإسلامية، أقام كليات العلوم والآداب والحقوق والعلوم السياسية والطب وغيرها.

سارع السلطان عبد الحميد الثاني بالأخذ بالفكر الإسلامي لأنه علم عصر انحطاط أمته فأخذ بتعاليم الدين الإسلامي لاجتناب الحروب الصليبية لذلك كان يعمل بالإسلام على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في جبهة واحدة لكي يمكن الصمود أمام الغرب.

ويعبر عبد الحميد الثاني عن ثقته في وحدة العالم الإسلامي بقوله " يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أهل في المستقبل إلا بهذا الوحدة، ووقتها لم يحث بعد لكنه سيأتي، سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه تحطمون رقبة الكفار (حرب، **، صفحة 24.23)

فيتضح أن هذه الاصلاحات تمثل ما جاء به الإسلام في وثيقة المدنية على أن الحضارة لا تقوم إلا في ديانة واحدة وهي الإسلام.

فرغم أن السلطان عبد الحميد وعد في بداية حكمه بإقامة الحياة الدستورية فإن الظروف التي أحاطت بتوليه العرش وعدم ثقته، في نزاهة وكفاءة ساسة الباب العالي والأزمات الداخلية والخارجية التي ألمت بالدولة مما دفعه إلى تركيز السلطة في يديه بالتدريج وطبع الإدارة بطابع الحكم المطلق.

يرى السلطان عبد الحميد الثاني أن النهضة أو التقدم لا يأتي من الخارج أو الغرب بمضي الاقتداء بعلوم الغرب كما فعل مُحَمَّد علي باشا بإرسال البعثات بل عمل على اصلاح الدخل، وهكذا أفاد من الخارج بطريقته الخاصة (فقد أنشأ كلية للعلوم وكليات للآداب والحقوق والعلوم السياسية وأكاديمية للفنون الجميلة ومدارس عليا للتجارة والزراعة والسيطرة والغابات والتعدين والتجارة البحرية والمعلمين العليا والمدارس متوسطة متخصصة مثل: مدارس الصم والعميّ والبكم... وإلى جانب التعليم العام أنشأ مؤسسة حديثة للمياه وحرفا للصناعة والتجارة والزراعة، كما أقام البلديات ومد خطوط السكك الحديدية واهتم بتعزيز المواقع العسكرية). (مصطفى، 1993، صفحة 243.242)

ففي الحقيقة قامت اصلاحات عبد الحميد الثاني بتأثير من رشيد باشا، على اهدار أول بيان عام لمبادئ الاصلاح، عرف بقرار "كلماته الذي كان نقطة انطلاقه من المرجعية الدينية الإسلامية، على اعتبار أو الدولة إذا أطاعت الشريعة كانت دولة فاضلة، فقد قام قانون المؤسسات الجديدة المستحدثة في فترة الإصلاح هذه على ثلاث أسس:

1- ضمانات تؤمن لرعايانا تأمينا تاما الحياة والشرف والرزق.
2- نظام قانوني لتحديد الضرائب وجبايتها.
تنظيم قانوني للتجنيد ومدة الخدمة. (حوراني، 1997، صفحة 57)

إضافة إلى قوانين أخرى تضع العامة مع مراتب أهل الخدمة للسلطان دون امتيازات تضاف لهم، إضافة إلى توزيع الرواتب ومناصب الوظيفة بين أفراد الطوائف المختلفة من مسيحيين ومسلمين وغيرهم.

كانت هذه الاصلاحات جديدة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني إلا أن الحركات الانفصالية مثل "حركة مُحَمَّد علي باشا واستقلاله بحكمه الذاتي اضافة إلى بعض الجزر البلقان وغيرها من الحركات الثورية التي خرجت عن نطاق الإمبراطورية، ناهيك عن الحروب الصليبية التي أفتكت بها أدى إلى سقوط الخلافة العثمانية.

5.2. الأسباب التاريخية لظهور النهضة العربية :

كان الشرق الإسلامي متفوقا حضاريا على الغرب المسيحي أخذ ميزان التطور الحضاري يميل لصالح الغرب ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي، بسبب ما يلقه العالم الإسلامي من غزوات واستعمارات سواء بسبب الحروب الصليبية أو الاعتداءات المغولية وغيرها، وفقدت الشعوب الإسلامية قدراتها الابتكارية بينما أفاد الأوربيون من عناصر التفوق في البلاد الإسلامية، وانطلقوا منها مبدعين، على غرار التخلف الذي ساد الدول الإسلامية من صراعات سياسية وانقلابات عسكرية وفوضى صراع الطبقات والمماليك والموالي، والجشع نحو السلطة وحب التملك والسيطرة، ونستطيع أن نقول بان هناك تحول تاريخي في المعادلة التالية: كان العرب المسلمين في أوّج تقدمهم الحربي كان الأوربيون في أضعف الحالات واتبعوا إلى الاهتمام بالعلم والفكر، فلما دقت مدافع نابليون جدران مصر استفاق العرب لوضعهم المزرى وتخلفهم وركودهم الاقتصادي والاجتماعي. (نوار، 2002، صفحة 51)

فقد كانت الحملة الفرنسية على مصر سببا واضحا مباشرا لتدارك العرب تاريخ تأخرهم ومعرفة تقدم غيرهم، فلما عرف العرب الطباعة التي قدمت مع الحملة الفرنسية والأوضاع العلمية المتقدمة للغرب وعدلهم ومعرفتهم في الحروب، وتنوعهم واختراعهم فيها، فهذا ما أدى مُحَمَّد علي باشا إلى العمل على تحسين مستوى بلاده فأحضر علماء الغرب، وبعث ما امكنه بعثه من مصر إلى تلك البلاد، فإن علماءها أعظم من غيرهم في العلوم الحكيمة، وبهذا حاول أن ينتقل الثقافة الغربية إلى بلاد العرب والمسلمين فكانت أول إشارة انطلاق النهضة العربية. (الطهطاوي، 2001، صفحة 17)

3. اصلاحات مُحَمَّد علي باشا :

بدأ مُحَمَّد علي باشا تجربته في الاصلاحات متأثرا بفرنسا، كان ذلك قبل ان تبدأ الدولة العثمانية تجربة التنظيمات بعقود ولقد طبعت محاولاته الاصلاحية التي أعقبت الأولى في القرن التاسع عشر، ومن يستبعد معطيات التجربة الإسلامية العربية مع مُحَمَّد علي، فشملت اصلاحاته:

- تحديث الجيش وتطوير هيكلة النظامي
- الإصلاح المالي والجبائي
- الإصلاح الإداري
- تطوير النظم التعليمية وإرسال الطلبة إلى أوربا للتكوين
- اصلاح نظام العلوم الدينية في جامعات الأزهر والزيتونة والقرويين

محاكاة الصناعات الأوربية وإنشاء نظام احتكاري. (البطريق، 1999، صفحة 15)

فلما تولى مُحَمَّد علي الحكم بعد مغادرة الفرنسيين قام بتحرير الأراضي من المماليك والخروج عن السلطان العثماني، وفصل العلماء عن مجلسه الاستشاري آخذا بالقاعدة القائلة، القضاء على من رفعك إلى الحكم دون علم مسبق من

طرفه بشؤن السياسة والحكم، فقد ضم جميع الطوائف العربية أو غيرها وكذلك الاسلامية وطوائف غير المسلمين الذين لهم دراية بسياسات أوربا وشؤونها المالية. وأهم الانجازات السياسية والعسكرية انه قضي على السلطة الوهابية في الجزيرة العربية، واعتبر نفسه بطلا من أبطال الإسلام العثمانيين، إضافة إلى تغيير في النظام الطبقي الاجتماعي على اعتبار أنه اتخذ من الأرمنيين مساعدين له.

فكانت له مشاريع نهضوية اقتصادية، فأمر بزراعة القطن وانشاء جهاز جديد للنقليات وللتسويق، وحاول انشاء صناعات حديثة، وكان ذلك مستعينا بالأيدي الأجنبية أمثال "سان سيمون".

أما فيما يخص اصلاحات مُحَمَّد علي العلمية أنه قام بإنشاء المدارس المهنية وإفادة طلابا إلى أوربا، وترجمة مؤلفات بعد عودتهم من الخارج وانشاء مطبعة وإصدار جريدة رسمية لنشر نصوص المراسيم والقرارات، لكنه لم يرغب في أن يكتسب الطلاب من المهارة فوق ما هو ضروري، فكان إرسال البعاث العلمية دفعات في البداية كانت من فئات الأتراك والمسحيين ثم ازداد العنصر المصري فيها، وكانت الطبقة المثقفة الأولى في مصر و الذين كان لعم تعاون وثيق مع أتباع "سان سيمون" وقد تخرج من هذه المدرسة أحدا المفكرين السياسيين المعروفين وهو "رفعت الطنطاوي. (حوراني، 1997، صفحة 65.63)

* وكنتيجة للأسباب التاريخية فقد كانت الإشارة الاولى لبوادر النهضة العربية في العصر الحديث، قبل أن تجسسه في مدارس واتجاهات ومذاهب فكرية مستقلة بذاتها

*** مظاهر النهضة الأولى مع "مُحَمَّد علي".**

فكانت فائدة إرسال البعثات العلمية في الخارج أن برز فيها عظماء ومفكرون وساسة لا تعزوهم الحكمة أمثال الطنطاوي كما ذكرنا سابقا، ولمعرفة الحياة الغربية ولإدراك الفرق المتباين بين العرب والغرب، فقد قضي الطهطاوي خمسة أعوام في باريس طالع فيها باللغة الفرنسية، مؤلفات في شتى الأصناف العلوم، كما اطلع بوجه خاص على الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر، فعكف بصورة خاصة على نقل عدد من المؤلفات في الجغرافيا والعلوم العسكرية والتاريخ إلى اللغة العربية، ومن بين الكتب التي نقلها والتي لا تخلو من أن تكون ذات دلالة خاصة على نقل عدد من المؤلفات في الجغرافيا والعلوم العسكرية والتاريخ إلى اللغة العربية.

لقد وعى الطهطاوي بحدة واقعة انهيار الحضارة الإسلامية ورأى بأم عينيه الهوة التي باتت تفصل بين أمته وبين امة الغرب.

ونجد عرض الطهطاوي آراءه في قضية التقدم في كتابين اساسين له هما "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" و" مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية. (جدعان، 1988)

فقد كان التفاوت كما ادركه الطهطاوي بين بلاد الإسلام وبلاد الغرب على حد سواء، على الرغم مما بينهما من تفاوت آت مندرجة "التفاوت في العلوم والفنون" حسن الحال، وتقليد شريعة من الشرائع" و التقدم في النجاعة" إذ يقول الطهطاوي (فالبلاد الإفرنجية يلفت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة، أصولها وفروعها، وبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم الطبيعية". (جدعان، 1988، صفحة 115) فكانت للعرب أن حاولوا نقل النهضة والتقدم الفكري والعلمي والادبي والتقني وإخراج العرب المسلمين من حالة الركود التي يعيشها.

*** الأسباب الثقافية:**

أ–المؤسسات التعليمية:

كانت بعض الجوامع منارات علم وأدب، مثل جامع الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بالمغرب، وقد لعبت هذه المعاهد الكبرى دورا كبيرا للحفاظ على التراث العربي الإسلامي من الضياع ولكن التعليم بها ظل تقليديا، فلم تتطور أساليبه.

وفي مطلع عصر النهضة انتشرت المدارس والمعاهد والجامعات ولاسيما في مصر ولبنان، وقد أدت المؤسسات التربوية التقليدية والحديثة دورا كبيرا في تعليم الأجيال وتثقيفهم، فما هي إلا مدة قصيرة حتى ظهر الجيل الاول من رجال الفكر والعلم والأدب الذين حملوا مشعل إحياء التراث، ونقل الآثار الغربية ثم الإبداع. (المحافظة، 1987، صفحة 34)

ب–الطباعة:

كانت طباعة الكتب لم تكن معروفة عند العرب، فقد قامت أول مطبعة بالعربية في إيطاليا من القرن 16 م، إلا أن أتت الحملة الفرنسية إلى مصر على يد نابليون بونابرت، وكانت مخصصة لطبع المنشورات التي يحتاجها المحتل ليتصل بالمواطنين، وفي سنة 1821م، أنشأ مُحَمَّد علي مطبعة "بولاف" وعلى الرغم من طابعها الحكومي فإنها لعبت دورا كبيرا في النهضة الفكرية والأدبية.

ج–الصحافة:

كان للصحافة دور هام نوعية فكر الفرد العربي الحديث، وتحمله حتى أخبار داخلية أو خارجية تجعله يتحاشى مع الحوادث الحاضرة، وأول صحيفة ظهرت بالمشرق العربي كانت صحيفة عسكرية تعبر عن سياسة الحملة العسكرية الفرنسية ومن أهم هذه الجرائد.

1/ جريدة الوقائع المصرية سنة 1828م أنشأها مُحَمَّد علي بمصر

2/ جريدة مرآة الأحوال" سنة 1855م، في سوريا. (الجابري، 1996، صفحة 59)

د–المجامع اللغوية والجمعيات والأندية:

من عوامل النهضة العلمية والأدبية في أي مجتمع، هناك اهتمام بالغة، والفكر والأدب، وكانت المجامع العربية والجمعيات الثقافية مزدهرة في العصر العباسي ثم تلاشت في عصر الضعف ثم يفعل المبادرات الفرنسية إزاء حملتها على مصر أعيد إحياء مجامع لغوية، وأندية ثقافية وتربوية من بينها:

1. مجمع اللغة العربية بدمشق، وتأسس سنة 1919م، وكان اسمه المجمع العلمي العربي وكان له فضل عظيم في تصحيح الأخطاء اللغوية، ووضع المصطلحات ونشر المؤلفات.
2. الجمعية السورية، وتأسست عام 1847، وكانت أهدافها علمية أدبية.
3. المجمع الملكي للغة العربية بمصر وتأسس عام 1932م، وهو الآن مجمع اللغة العربية ويهدف إلى الملاحظة على سلامة اللغة العربية" وجعلها قادرة على التعبير عن حاجات العصر، وما زال يقدم خدمات إلى اليوم.

ومن الصحف الرائدة التي ظهرت في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي جريدة "المبشر" سنة 1847م، وكان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دور كبير في نشر الصحف العربية منها: النجاح، المنتقد، الشهاب

هـ–المستشرقون:

وهم علماء وباحثون غربيون ينتمون إلى جنسيات مختلفة تخصصوا في الآثار الشرقية لأسباب سياسية ودينية وثقافية، وقد اهتم الغرب بعلوم الشرق وآدابه منذ مدة طويلة فأنشأوا المعاهد المتخصصة لهذا الغرض في بلداتهم، وكان فضلهم في ايجاد المؤلفات الضائعة والتحقق في المخطوطات، وفق أساليب التحقيق العلمي، ونشروا الكثير من الآثار، وطبعوا الكتب النفيسة والمخطوطات النادرة ونقلت إلى بلداتهم حتى يتسنى لهم معرفة الشرق معرفة تامة

3. أهمية العقل وتخطي الأزمة الدينية (مُحَمَّد عبده 1905/1849)

عاش مُحَمَّد عبده في عصر بلغت فيه الشعوب الغربية طورا جديدا من الحياة قوامه العلم وبفن والصناعة، وهدفه الفتح والسيادة والغلبة في حين كانت بلاد الشرق وبلاد الغرب، تضم شعوبا جاهلة متفرقة ضعيفة، تخضع للمستبدين وتثير طمع الفاتحين" . (قدري، 1993، صفحة 153)

إلا أن الجو العام الذي تميز به العالم العربي سيطرة الخرافة وحلول العقائد الميتافيزيقية المزيفة، والتفاسير الأسطورية وسيطرتها على فهم الناس للظواهر والأحداث فضلا عن التقيد بالنص المنقول، أي الأخذ بالمظاهر دون الاجتهاد في تفسير النص وتأويله وعقلنته وهذا ما كان عند بعض الدارسين حتى أغلقت منافذ التفكير المستقل.

كان الوضع الفكري والديني في العالم العربي إما شرح النقل ووضع عليه تعليقات سواء في المتون أو الحواشي وهذا في العصر العثماني وكان قبله عصر المماليك.

أما فيما يخص الوضع السياسي فقد ساد الظلم واضطهاد الشعوب وغياب الحرية والمساواة والعدل وهذا ما أدى إلى سهولة احتلال البلاد وانحطاط المسلين وضعفهم.

فقد كان هذا الوضع سببا في ظهور عدة تيارات فكرية تسهم في بناء الفكر والعلم وإعادة رسكلة السياسة وهيكلتها، إلا أن التيار الذي أنتهي إليه المفكر المصري <<مُحَمَّد عبده>> يكون الخلاص في طريق الدين ولكن وفق منهج عقلي يكون سبيلا لتحديد حياة الشرق والشرقيين

3. منهج مُحَمَّد عبده الإصلاحي:

سار " مُحَمَّد عبده" على نهج معلمه الأفغاني، من حيث الاحتكام إلى العقل في كل خطوة يخطوها، فقد كان الأفغاني يقول: " إن الدين الإسلامي يطالب المؤمنين به بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب، خاطب العقل، وكلما حاكم، حاكم للعقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة، من لواحظ الغفلة وإهمال العقل وإطفاء نور البصيرة. (الأفغاني، 1980، صفحة 177)

وكان هذا نفسه هو الأساس الذي أقام عليه الإمام مُحَمَّد عبده فكره الفلسفيّ، إذ كان أهم ما اهتم له هو أن يوضح العقائد الأساسية في الإسلام توضيحا يبين استنادها إلى منطق العقل، فتراه في كتابه " الإسلام والنصرانية"، يفصل القول في الأصول، التي يقوم عليها والإسلام تفصيلا، فيحمل الأصل الأول لهذا الدين هو " النظر العقليّ"، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، " فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد اذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه". (عبده، 1983، صفحة 73.72)

ثم يجعل الأصل الثاني للإسلام " تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض" وفي شرح ذلك يقول ".... إنه تعارض العقل والنقل، أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في عمله، والطريق الثانية: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل. (عبده، 1983، صفحة 74)

وأصل القول بتقديم العقل على ظاهر الشرع هو <<ابن رشد>>، وهو تمهيد للتأويل. أي أن المفكر الإسلامي الأول الذي كان له السبق في استخدام العقل كمنهج في تفسير الشرع وتأويله، ويقصد بالتأويل عند " ابن رشد" هو << إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقة أو مقارنة...>> فقد ورد الشرع وفيه ظاهر وباطن، وأجمع المسلمون على أنه لا يجب أن تحكل ألفاظ الشرع كلها عن ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل والسبب في ورود الشرع وفيه ظاهر وباطن هو اختلاف، قطر الناس وتباين قرائحهم في التصديق. (رشد، 1991، صفحة 53)

فتكون القاعدة العامة للتأويل عند " ابن رشد"، هو وجود توافق بين " باطن الشرع" وبين كل ما يؤدي إليه البرهان، فيقول في شكل مسلمة قاطعة " ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالقه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي

وغاية ابن رشد أن يقول إن الفيلسوف المتأول لظاهر الشرع معذور دائما في نتيجة تأويله، ولا يجوز اتهامه بالكفر، ما دام هو من أهل البرهان، وما دام ينطلق من اعتقاد بصحة الشرع، ولكن وفق التأويل الذي ارتضاه

وكما أن المعتزلة كان لها السبق في جعل العقل منهجه التأويل ومن المعروف أن اصطلاح المتكلمين، أن التأويل هو صرف النظر عن معناه الظاهر إلى معنى آخر.

كان منهج مُحَمَّد عبده وكأثير بالمعتزلة والشارح الأكبر " ابن رشد" وذلك من حيث وثوقه بالعقل إلى حد لو تعارض النص مع العقل لرجح دليل النقل، ولجأ إلى تأويل النص تأويلا عقليا يتوافق المنقول مع المعقول ويرفع كل تعارض بينهما.

أما الطرق الأخرى خلاّف طريق العقل، وخاصة منها التي تعتبر العقل قاصر على فهم العقيدة وتأويل النص هو المشبه والفيلسوف والمحدثون وهم الفئة التي تسيطر بصفة جلية في الفكر العربي لأنها من أصول حركة مُحَمَّد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، والتي كانت أولى بوادر ارهاصات الإصلاح في تاريخ الفكر العربي وهذه الفئة يصفها الإمام مُحَمَّد عبده: " وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله يعلمه>> (عبده، 1983، صفحة 78)

ويبدو أن مُحَمَّد عبده سعى إلى معالجة المسائل العقدية للمسلم، وإبراز كيفية استطاعت العقل معرفة العقيدة الإسلامية وأركانها وأصولها، ومن بين هذه العقائد:

1.3القضاء والقدر:

وهو جانب من العقيدة الإسلامية، كثيرا ما اتخذ حجة على تأخر المسلمين كما أنه كثيرا ما كان مقيدا لمن أساء فهمه من المسلمين الذين يستشهدون ببعض الآيات استشهادا يفهم منه أن الإنسان يجبر على القيام بما يقوم من أعمال، وأن الأعمال إنما يقوم بها ملزما بإرادة الله ومشيئته، وأن الله هو الذي خلق الإنسان، وخلق عمله.

ولقد أخذت هذه المسألة القضاء والقدر، دورا هاما في المذاهب الإسلامية، وكان لأهل السنة فيها رأي يتخلص في أن الإنسان له كسب اختياري في أفعاله فهو يحاسب على هذا الكسب الاختياري، وعلى اختلاف أراء المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وجبرية، فقد بين مُحَمَّد عبده أن هذا الاعتقاد هو نفسه الاعتقاد في الرابطة السببية بين الحادثات، على أن الإنسان قد يستطيع أن يرى من الأسباب ما هو حاضر لديه، لكن ربما يمتنع عليه إدراك بقية التسلسل السببي في تتابع الحوادث، وسواء أدركه أم لم يدركه، فليس في القول بقيام الرابطة السببية ما يجوز أن يكون موضع اتهام فقوام العلم نفسه هو هذه الرابطة في وقوع الحوادث، ولا ضير علينا في أن نتصور الإرادة الإنسانية نفسها حلقة من حلقات السلسلة السببية، إذ الإرادة متوقفة على إدراكنا لما يقع مما يؤثر في حواسنا، أي أنها تنبني على علم بما هو حادث، وما هو حادث مرتب مدبر.

وإذا ما نظرنا إلى رأي القائلين بجبرية الفعل الإنساني ولا مجال لحرية الإنسان ولا منطق العقل مما يكسب الإنسان التواكل والخنوع والكسول والخمول. (عبده، الأعمال الكاملة، 1980، صفحة 482)

و هذا كله يعني الأخذ بالأسباب والتماس الوسائل ونبذ الكسل ويقول <<مُحَمَّد عبده>> في هذا الصدد: << إذا هاجم اليأس قلب امرئ من مطلوب يطلبه أو قامت العقبات دون مرغوب يرغب فيه، قام الإيمان بالقضاء والقدر والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة، يفتح له الأبواب المغلقة ويذلل المصائب الشديدة فيأخذ العدة من حيث أمر الله باتخاذها، فالتاجر الذي يخشي الخسران، أو تلف... إذا تصور أن كل شيء بقضاء وقدر، وأن الرزق المقسوم، والأجل المحتوم، تمضى إلى العمل، بعد يهيئ وسائله، ويسأل كما يجهل منها من له بها علم، ويتبع سنة الله في استعمال العقل وجميع وسائل قوى النفس فيما وهبت له، فيقوى بعقيدة القدر على الكسل، وينزع إلى العمل>> فالإنسان إذن في نظر مُحَمَّد عبده عامل قبل كل شيء، ولا محيص له في أن يعمل لنفسه ولغيره، ذلك لأنه غير مستقل بما يكفي لحفظ بقائه، ولابد له من الاستعانة بغيره، ولن يعينه الغير حتى يرى من عمله ما يعود عليه بمنفعة ما، ولاشك أن عمل الإنسان واع، فهو يعمل بيده ولكن بتوجيه من العقل، وهكذا يؤكد الإمام على أن:<< لا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، وتفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء>>. (عبده، رسالة في التوحيد، 1994، صفحة 139)

وهكذا تناول الإمام طائفة من المفهومات الدينية بالتوضيح الذي يجعلها حوافز للنشاط والعمل، فمن قبيل ذلك أيضا فكرة التعارض الظاهري بين إرادة الله الكاملة وعمله الكامل من جهة، وإرادة الإنسان من جهة أخري، إذ يتساءل المتسائلون في هذا الصدد: أيجوز للإنسان حرية يفعل بها ما يريد، حين يكون الله قد علم علما سابقا بكل ما سيقع على طول الزمان؟

و يتصدى الإمام لهذا السؤال في مؤلفه " رسالة التوحيد" ليزيل عن موضوعه ما يكتنفه من غموض، حتى لا يكون سببا في تعطيل قدرات القادرين على العمل المنتج، فيقول في فصل عنوانه "اختيار الإنسان" إن الله هو الذي قدر أن يجيء الإنسان مفكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره، وكون علم الله محيطا بما يقع من الإنسان بإرادته لا ينفي أن يكون حرا فيما يعمل وما يدع، لأن العلم السابق بما سيقع هو كعلم صاحب القضاء في الدولة أن العمل الفلاني إذا وقع حلت بفاعله العقوبة الفلانية، وأن ذلك ليكون معلوما عند فرد من الناس، ومع ذلك تراه يقدم على عمله، فانكشاف الواقع للعالم لا يصبح في نظر العقل ملزما ومانفا. (عبده، رسالة في التوحيد، 1994، صفحة 65)

و هكذا يفهم من الإستشهادات التي قدمها " مُحَمَّد عبده"، أنه لا تعارض بين قضاء الله وقدره وبين عمل الإنسان، ذلك أن الله حين خلق الإنسان وخلق له الغرائز والحاجات، وخلق له العقل المميز، أعطاه الاختيار بأن يقوم بالفعل أو يتركه ولم يلزمه على القيام بالفعل أو الترك ولذلك كان الإنسان مختارا في الإقدام على العقل أو الإقلاع عنه، بما وهبه الله من العقل المميز، وجعله مناط التكليف الشرعي، ولهذا جعل له الثوابت على فعل الخير، لأن عقله اختار القيام بأوامر الله واجتناب نواهيه، وجعل له العقاب على فعل الشر، لأن عقله اختار مخالفة أوامر الله وعمل ما نهى عنه باستجابته للغرائز والحاجات العضوية على غير الوجه الذي أمر به الله.

2.3 أفعال الإنسان:

يقول الإمام بصدد أفعال الإنسان وحرية الإرادة واختياره لأفعاله: "كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود، ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجه

بعقله، ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقدرة ما فيه، ويعد إنكار الشيء من ذلك مساويا لإنكار وجوده، في مجافاته لبداهة العقل. (عبده، رسالة في التوحيد، 1994، صفحة 61)

واضح من النص أن الإنسان مفكر مختار في عمله على مقتضى فكره وعقله، واختياره لأفعاله لا يحتاج إلى دليل ولا مرشد مثلما لا يحتاج الفرد الواحد منا إلى برهان لإثبات وجود نفسه، وهذا يعني أن ما وهب للإنسان من الميزات التي يمتاز بها عن سائر الحيوانات، لا شيء فيها من القهر على العمل."

و مقابل هذه الأعمال التي يختارها الإنسان بنفسه وبمحض إرادته وعلمه، هنالك أعمال أخرى اختيارية، أو هي جبرية يعرف كنهها ولا يتحمل نتائجها، كأن يطلب كسب الرزق فيفوته، أو يسعى إلى منجاة فيسقط في مهلكة، أو تهب ريح فتغرق بضاعته، فمثل هذه الأعمال تقع في الدائرة التي تسيطر على الإنسان ومن ثم لا دخل له بها، وإنما الله وحده هو الذي يعلمها، وحاشا أن تكون قدرة قوى الممكنات أسمى من قدرة مكون الكائنات أو هي محيطة بها، على أنه يجب التأكيد أن إحاطة علم الله بما يقع من الإنسان بإرادته لا بسبب التخيير عنه ويورد الإمام مثالا على ذلك: شخص من أهل العناد يعصى سيده باختياره مع علمه أنه سيعاقبه لا محالة ومع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة، فعمله هذا لا أثر له في اختياره الإقدام على العمل أو الإحجام عنه.

3.3.فكرة التوحيد:

كانت فكرة التوحيد أن سبق لها الجدال الكبير في تاريخ الفرق الكلامية وبخاصة المعتزلة والأشاعرة، وكان للمعتزلة الفضل الأول في مواجهة مختلف أنواع الغزو الفكري ضد العالم الإسلامي، فأخذ مُحَمَّد عبده التوجيه على أنه أساس قيام العقائد الإسلامية، ولما يواجهه الدين من غزو ثقافي وأجنبيّ، فقد نهج منهجا عقليا في معالجته لهذه الفكرة، ويتضح ذلك من خلال تحديده لعلم التوحيد وغايته: << الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له، مع تنزيه كما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله، على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل، لا استرسالا مع التقليد، وفق ما أرشدنا إليه الكتاب، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدنا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلا لليقين بما هدنا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكي عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم... وحق ما قال، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل ،وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو متصلة يقدر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان". (عبده، رسالة في التوحيد، 1994، صفحة 32)

ويقول أيضا: " فالإسلام في هذه الدعوة المطالبة بالإيمان بالله ووحدانية لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي". (عبده، الأعمال الكاملة، 1980، صفحة 279)

ومن الواضح أن الإسلام دين توحيد، وعقيدة التوحيد هي الأساس المتبين لأيمان المسلمين الذين يعتقدون أن " لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، والإمام دون شك يقر بوجود الله وبتوحيده في ذاته وأفعاله، ولكن المهم في نظره، تنزيهه عن مشابهة المخلوقين وبالتالي تنقية وحدة الله من شوائب التشبيه والتجسيم وتعدد الشركاء مع الله، ولكن وفق طريق عقلاني سليم، وهكذا جاء الدين الإسلامي كما يقول " فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت

عليه آثار .... من الصفات العلية، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه...وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين". (عبده، الأعمال الكاملة، 1980، صفحة 440)

وباختصار فإن القرءان كما يؤكد مُحَمَّد عبده لم يطلب التسليم بما جاء به هكذا بل ادعى وبرهن، وحكي مذاهب المخالفين، ورد عليها بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وذلك من أجل الوصول إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه << فأقام العقل حكما فاصلا في إقرار اليقين".

4.3.إصلاح التربية والتعليم:

المقام الذي تظهر فلسفة مُحَمَّد عبده التربوية:

يعد التعليم والتعلم وطرقه الشغل الشاغل الذي عمل عليه زعماء الإصلاح، على اعتبار أنه الهمزة التي تصل بنا إلى اللحاق بالركب الحضاري وخاصة الأمم المتقدمة ونعني بها الدول الأوروبية، باعتبار أن "مفتاح التقدم في نظر – عبده مُحَمَّد– يكمن في تبني العلوم الغربية والتربية الغربية...وأن سطوة أو لذلك يقول وهو يخص على الاقتداء بالأمم المتقدمة، للاستفادة من خبرتها ومعرفة سبب تقدمها وثروتها:<< فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل والدول، وما الذي نقلهم من حالهم الأولى، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء... فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا، أليس من البين أنه لا دين إلا بدولة، ولا دولة إلا بصولة، ولا صولة إلا بقوة ولا قوة إلا بثروة، وليس للدولة تجارة وصناعة، وإنما ثروتها بثروة، وليس للدولة تجارة وصناعة، وإنما ثروتها بثروة أهاليها، ولا تمكن ثروة الأهالي إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرائق الاكتسابروبا مصدرها تفوق نظامها التعليمي وتقدمها في ميدان البحث العلمي". (عبده، الأعمال الكاملة، 1980، صفحة 30)

فيرى مُحَمَّد عبده أن العلم أساس لكل تطور ورقي المجتمعات، والعلم كذلك سبب الثروات الفردية والوطنية والقومية، ويشير كذلك إلى ضرورة الاقتباس من العلم الأوروبي دون التخلي عن الإسلام.

وهذا ما يدل أن مُحَمَّد عبده ليس كما يرى البعض بأن مشروعه لا يهدف إلى الأخذ بعلوم القرى وتمدنهم بل حث عليه وأكد عليه، ولكن لا يتم ذلك إلا أذا تطلب تغييرا في مؤسسات المجتمع الإسلامي وخاصة مدارسه إضافة إلى تضامنه الشرعي وأساليب الحكم فيه. وهنا يركز الإمام اهتمامه على الجانب التربوي التهذيبي الذي يمكن أن يشيعه العلم بفرعيه (العقلي والشرعي)، في الإنسان، ذلك لأن العلم وحده غير كاف للعمل. لقد طلب الإمام وطالب علما بمعنى التربية، التي تسهم في تطبع الإنسان بملكات يقدمها الشرع يفهمها العقل وتخضع لها. والتربية عنده تتم في ناحيتين تربية العقول بتنقيتها من الاعتقادات الرديئة، وتربية النفوس بترويتها على الصفات الفاضلة، فيقول مُحَمَّد عبده في الوقائع المصرية << من المعلوم البين أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب. والعناية بشأن التعليم فيها، إنما هي تربية العقول والنفوس، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز الباسطة الصرفة. وإبعادها من التصورات والاعتقادات

الرديئة إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة، تحدث لها ملكة التميز بين الخير والشر والضار والنافع". (عبده، الأعمال الكاملة، 1980، صفحة 27)

5.3. . إصلاح السياسة والقضاء على السلطة الدينية:

المتأمل في التاريخ الإسلامي يجد أن مختلف الصراعات التي حدثت منذ تاريخ الخلافة إلى العصر الحديث أنها ذو طابع –سياسي ديني– على اعتبار أن أي خليفة يحصل الحكم لصالحه إلا ويجد حاشية ذو فرقة دينية أو ذو جانب طائفي ديني، وهذا ينطبق على الحروب التي دارت بين الفرق الإسلامية، فهي لم تكن حروب "عقيدة دينية" وإنما كانت حروبا " سياسية" والموقف الذي اتخذه " مُحَمَّد عبده" في مباشرة الإصلاحات السياسية، فجاء منذ وجود سلطة دينية في الإسلام، ونفي جميع الصراعات السياسية الممزوجة بالصراعات الدينية، فقام برفض الأخذ بمشروع المسيحية الأخذ بجمع سلطتين الدينية والمدنية، فيتخذ الطابع القومي المدنيّ، الذي لا يفرق بين المواطنين بسبب الاعتقاد الديني أساسا وصيغة لنظام الحكم في البلاد، فالعبرة عنده في تطبيق المنهج العقلاني على المفاهيم الدينية، وكان مُحَمَّد عبده من وراء منهجه الإصلاحي إلى:

1–تطهير الإسلام من العادات والتأثيرات الفاسدة.

2–إصلاح التعليم العالي الإسلامي.

3–تنسيق المبادئ العقائدية الإسلامية على ضوء الفكر الحديث.

4–الدفاع عن الإسلام ضد المؤثرات الأوروبية والهجمات المسيحية.

نستخلص من كل ما سبق في حديثنا عن أهمية العقل وتخطى الأزمة الدينية لمحمد عبده فنجد أنه انتهج أسلوبا عقلانيا في معالجته للمفاهيم الدينية، وهذا يعد ثورة في عصر كان الإيمان بالدين الإسلامي يتم عن طريق التقليد، ففي نظره أن الكون جميعه هو صحيفة العقل، ومن حقه أن يطالعها ويرى فيها ما يراه دون أن يكون في ذلك مخالفة للدين، بل إن الدين–كما يرى–يكمل العقل ويقومه، وأن العقل حكم في شؤون الدين وهكذا يقرر أن الدين يجب أن يعد "من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله، لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه".

الخاتمة:

من خلال ما سبق حديثنا في عمل مُحَمَّد عبده الإصلاحي العقلاني نصل إلى عدة نتائج عامة حول الاتجاه الإصلاحي وعلى فكر مُحَمَّد عبده على الخصوص:

- من بين نتائج الإصلاح الديني على مستوى البلدان العربية في القرن 19م، فقد شهدت مصر مثلا عدة تغيرات في الجهاز السياسي، وكذلك على المستوى العلمي والفكري مثل: قيام الثورة العربية في مصر ضد نظام الخديوي، التي جهز لها الأفغاني العامة من أجل المطالبة بالعيش الكريم، والحياة الآدمية، إلا أنها باءت بالفشل، ثم كان إن ارتحل الأفغاني إلى باريس أطلق صحيفته <<العروة الوثقى>> ومن هناك باشر بالتغيير الثوري ودعي إلى إسقاط الحكم الخديوي في مصر وإلى إلغاء الخلافة واستبدالها بالجامعة الإسلامية.
- فنجد أن السمة التي تضفي على مُحَمَّد عبده أنه داعية إصلاحي للتربية والدين، وجمال الدين الأفغاني داعية للإصلاح السياسي فقد كان أن نتج عن هذين المصلحين ميلاد مصلح يجمع بين الاتجاهين وهو "رشيد رضا>> فقد كان يسعي إلى ما سعى إليه الأفغاني ومُحَمَّد عبده، فأنشأ مجلة <<المنار>> يخلق فيها جريدة العروة الوثقى. (يوسف، 1988 ص 4)

في حقيقة الأمر أن المشاريع الإصلاحية لها عدة أبعاد ويظهر ذلك في نتائجها في المساهمة في الوضع الاجتماعي والفكري والثقافي والسياسي.

إلا أن هذه المشاريع قد أجهضت أو إن لم نقل قد دفنت في مهدها، بالرغم من انهيار المستشرقين بأسلوب الأفغاني أمثال أرنست رينان الذي حاوره الأفغاني، إلا أن مشروعه لم يقم في الواقع على اعتبار الحركات الوهابية التي انتشرت في الجزيرة العربية قد أوقدت نار الأفغاني.

إضافة إلى سبب فشل مشروع مُحَمَّد عبده كان بسبب ميلاد حركة الإخوان المسلمين، الذي قبلوا فلسفته رأسا على عقب، واعتباره مفكرا سلفيا دينيا وهو لم يكن هكذا يوما على اعتبار أن فلسفته تقوم على عقلنة الظواهر والأشياء، وحتى في الجانب الديني كان قوميا ولم ينحاز لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

فقد كانت الحركة الإصلاحية وخاصة " فكر مُحَمَّد عبده" جسرا لمرور التيار العلماني في العصر الحديث وكذلك مساهمته في بعث الروح العربية للحاق بالركب الحضاري.

قائمة المصادر:

1.مُحَمَّد عبده، 1983، الإسلام والنصرانية، بيروت، دار الحداثة.
2.مُحَمَّد عبده، 1980، الأعمال الكاملة للإمام مُحَمَّد عبده، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
3.مُحَمَّد عبده،1994، رسالة في التوحيد، بيروت والقاهرة، دار الشرق

قائمة المراجع:

1.أحمد عبد الرحيم السايح، 1989، فلسفة الحضارة الإسلامية، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
2.ابن رشد، 1991، فصل المقال، تونس، المنشورات للإنتاج والتوزيع
3.الإمام الخميني، 1359هـ، نظرة سريعة على الثورة الإسلامية في إيران، طهران، مؤسسة مجاهدي الثورة الإسلامية
4.ايبش يوسف، 1988، رحلات رشيد رضا، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
5.برهان غليون، 1992، اغتيال عقل، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
6.حسين مؤنس، 1978، الحضارة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.
7.جمال الدين الأفغاني،1980، الأعمال الكاملة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
8.مُحَمَّد العيدة، 2003، دروب النهضة، عمان الأردن، دار الإعلام
9.مُحَمَّد فريد وجدي، ب س، دائرة المعارف في القرن العشرين، بيروت، دار الفكر
10.مالك ابن نبي، 2002، وجهة العالم الإسلامي، دمشق، دار الفكر
11.قلعجي قدري، 1993، ثلاثة من أعلام الحرية، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع
12.عبد الوهاب الكيالي،1990، موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات
13.شكيب أرسلان،**،لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، قطر، وزارة الثقافة والفنون والتراث.
14.أورخان مُحَمَّد علي، 2008، السلطان عبد الحميد الثاني، إسطنبول، دار الوثائق للنشر والتوزيع
15.مُحَمَّد حرب، **، مذكرات السلطان عبد الحميد، دمشق، دار القلم
16.أحمد عبد الرحيم مصطفى، 1993، أصول التاريخ العثمانيين، بيروت، دار الشروق.
17.ألبرت حوراني،1997، الفكر العربي في عصر النهضة، بيروت لبنان، دار نوفل.
18.عبد العزيز نوار، 2002، النهضة العربية الحديثة، مصر، عين للدارسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
19.رفاعة الطهطاوي، 2001، تخليص الإبريز في تلخيص باريس، القاهرة، دار الكلمات عربية للترجمة والنشر
20.عبد الحميد البطريق، 1999، عصر مُحَمَّد علي ونهضة مصر، القاهرة، الهيئة الدستورية العامة للكتاب
21.مُحَمَّد عابد الجابري، 1996، المشروع النهضوي دراسة نقدية، بيروت، مركز الوحدة العربية
22.فهمي جدعان، 1988، أسس التقدم، عمان الأردن، دار الشروق
23.علي المحافظة، 1987، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع.

قائمة المعاجم والموسوعات:

1.ابن منضور، ** ،لسان العرب، القاهرة ، دار المعارف
2.الخليل ابن احمد الفراهيدي، دس، كتاب العين، بيروت، دار الكتب العلمية
3.مجمع اللغة العربية، 2004، المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق

ا

قائمة الأطروحات:

مُحَمَّد نورالدين جباب، 2006/2005، إشكالية الهوية والمغايرة في الفكر العربي المعاصر، قسم: الفلسفة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، الجزائر